هذا هو الابن النقي التقى ، الطاهر الذيل ، المغمض العينين . . الذى يخشي أبوه أن تتفتح عيناه على مفاسد القاهرة . . هذا هو الوديعة التى تسلمها المبقريات تربيتها والسهر عليها .

إبراهيم الفقى

القصة ذات أربعة أبطال ، وأغلب الظن أنه لم يبق من أبطالهـــا على قيد الحياة سوى واحد . أما الثلاثة ، فإثنان منهم أستطيع أن أجزم برحيلهم إلى الدار الباقية ، والثالث علمه عند ربى .

ولست أدرى أى دافع خبيث يلح علىّ فى ألا أغير أسماء الأبطال ولا أكلف نفسى مشقة انتقاء أسماء مستعارة ، أستر خلفها حقيقة شخصياتهم ، قد يكون الكسل ، وقد يكون الاستهتار . . أو قد يكون اليقين بأن أحداً منهم لن يغضبه نشر القصة ، ولن يبادر إلى تكذيبى والتشنيع علىّ .

أو قد يكون أكثر من هذا كله ، وهو الاطمئنان إلى الأبطال الأربعة . . لأن أحدهم هو أبى بالذات : المرحوم محمد السباعى ، وأنا واثق أنه لو مد الله فى عمره لسبقنى إلى نشرها . . كما سبق أن نشر معظم حوادثه مع المرحوم الشيخ عبدالرحمن البرقوقى فى قصة الدروس القاسية فى البلاغ الأسبوعى فى سنة ١٩٢٨ .

أما والله لم يهبه الفرصة لكتابتها . . فلأكتبها أنا عنه ، ولو صدق مايقال عن الأرواح من أنها ترانا وتحس بنا وتشعر بما نفعل ، فأغلب ظنى أنه قارئها ، وأن قهقهته العالية

ستزن فى السماء كما سبق أن رنت فى الأرض .

تبدأ القصة منذ زمن بعيد ، أستطيع أن أجزم أنه قبل سنة ١٩١٧ . . أى قبل أن أولد أنا .. فى إحدى المكتبات (أعنى بداية القصة وليس مولدى بالطبع) فى شارع غيط العدة الموصل بين باب الخلق وعابدين .

ويجلس فى المكتبة رجلان : صاحبها ، وصاحب صاحبها ، ثانيهما أفندى ، وأولهما شيخ معمم . . أما الافندى فهو أبى : محمد السباعى ، الذى قال عنه العقاد فى تقديمه لأحد كتبه « إنه كان طليعة المدرسة الأدبية الحديثة فى نهضة الأدب المصرى » .

وأما الشيخ فهو عبد الرحمن البرقوقى ، الذى قال عنه المازنى : « إنه كان فى زمانه من أعيان البيان وأقطابه وأعلامه بل كان يمثل عهداً من عهود الأدب » .

والإثنان . . كما هو واضح ، لمن لايعرفهم من أبناء الجيل الجديد ، من أئمة الأدب العربى وأعلامه .

وإنى أستطيع أن أتصور أبى بجسده الضخم ، وكتفيه العريضتين ، ووجهه الأحمر الممتلىء ، وقد جلس على كرسى من الخوص ، ووضع ساقاً على ساق فى نفخة وعظمة كأنه يجلس فى شبرد ، وبجواره الشيخ عبد الرحمن يجلس على

كرسى آخر بجبته المهفهفة وقفطانه الأنيق ، وجسده الفارع ووجهه الذى لايقل بياضاً ولا احمراراً عن وجه أبى . . . وقد وضع هو الآخر ساقاً على ساق وأخذ يتسلى بشد أنفاس من مبسم شيشة تكركع بجواره .

ولكى أعطى للقارىء فكرة عابرة عن الصديقين الحميمين أبدأ بشرح شخصية أبى وذكر بعض أحواله وقتذاك .

كان أبى يعمل بالأدب والتدريس ، وكان ككل فنان عبقرى بوهيمى ، لايقيم وزناً لأوضاع الحياة . . يفعل ما يرضى نفسه الفنانة بصرف النظر عن النتائج . . قال لى عمى وهو أخوه الأصغر (طه السباعى باشا) أنه حدث ذات مرة وهما العائلان الوحيدان للعائلة ، انه استقال من عمله ، وأوحى إليه بالاستقالة ، وقبعا فى الدار وأغلقا عليهما إحدى الحجرات ، والعائلة تكاد تجن ، وأبوهما يضرب كفاً بكف متسائلا فى دهش عما أصاب ولديه . . ثم اتضح أخيراً أنهما يحفظان « ديوان ابن الرومى »

وسمعت من جدى أن أبى عندما كان مدرساً فى مدرسة رأس التين بالاسكندرية كان يكره الذهاب إلى الاسكندرية ويفضل البقاء فى القاهرة ، وفى سبيل ذلك كان يجمع كل حصصه فى يوم واحد ، ويقضى بقية الأسبوع فى القاهرة .

فإذا ما جاء ذلك اليوم . . رفض السفر . . ويظل جدى يتوسل إليه ويدعو الله أن يهديه حتى يرضى أخيراً ، ولكى يطمئن جدى على سفره ، يأخذه من يده ويذهب به إلى المحطة ويركبه القطار ، ويتحرك القطار . . فيهدأ بال جدى ، ويحمد الله الذى هداه ، ثم يعود إلى الدار مطمئناً .

ويصل القطار إلى أول محطاته فى بنها ، فيشاور أبى عقله ويغادر القطار . . ثم يأخذ القطار العائد إلى القاهرة لاعناً الاسكندرية ومهنة التدريس .

ذلك هو أبى . . أما الشيخ البرقوقى . . فلا أظنه كان يقل عنه عبقرية . . وكان شديد الإعجاب به . . يتوق لأن ينهل بواسطته من منهل الأدب الغربى وأعلامه وعباقرته .

كان الإثنان يجلسان وقتذاك فى مكتبة الشيخ البرقوقى عندما هلّ عليهما الشيخ الفلك وقد سحب فى يده ولده إمام .

ولست أعلم كثيراً عن الشيخ الفلك ، ولكنى أعرف أنه رجل تقى طيب . . نقى السريرة شديد الورع . . قضى حياته فى الريف ، وقد أنهى ابنه دراسته الابتدائية فأحضره إلى القاهرة ليدرس فى المدارس الثانوية .

وإلى من يلجأ الشيخ الفلك غير الأستاذين الكبيرين والمربيين الفاضلين الأستاذ السباعى والشيخ البرقوقى ،

وهو الذى تربطه بهما أوثق الصلات وأمتن الروابط ؟

وهكذا حضر الرجل الطيب بابنه إلى القاهرة ، وأخذ يسأل عن البرقوقى والسباعى حتى اهتدى إليهما أخيراً .

وبعد التحيات والسلامات بدأ الرجل يشرح مقصده ويعرض مطلبه قائلا :

ـ بجى مايخفاش عليك ياسيد سباعى أنّى أنا خايف على الولد من مصر . . أنا باسمع أن كلها مفاسد وبلاوى ، وأنا خايف على الولد لعنيه تتفتح ويخسر . . جلت فى نفسى مافيش غيركم يجدر ياخد باله من الولد ، وأنا حاسيبه لكم وعارف إننى سايبه فى بيته . . مش كده والا إيه ؟

ويجيب الاثنان فى نفس واحد :

ـ أمال . . دا فى عنينا ياعم الشيخ . . دا ابننا . . ريح بالك وطمن نفسك . . ما تحملش همه أبداً .

ـ أنا برضه جلت كده . . هو احنا لنا حد غيركم .

ـ دا انت الخير والبركة .

ـ الله يبارك لنا فيكم .

وهكذا ينصرف الشيخ الفك تاركاً ولده فى كنف صاحبينا ، وقد اطمأنت نفسه وهدأ قلبه .

بقى أمامنا البطل الرابع ، لم نقدمه بعد . وهو إمام الفك .

قد يتصور القارىء عندما يعرف إن صاحبنا إمام ابن الشيخ الفك قد انتهى من الدراسة الابتدائية وأن أباه يخشى أن تتفتح عيناه على مفاسد القاهرة ، أنه لايعدو أن يكون طفلا غريراً .

قد يتصور كل إنسان هذا ولاسيما عندما ينظر إلى جيل أصحاب الابتدائية الحالى . . جيل أطفال لايزيد عن الحادية عشرة . . .

ولكن « إمام » لم يكن شيئاً من هذا .. أن جيل أصحاب الابتدائية وقتذاك كانوا فى سن آباء هذا الجيل . . كان بينهم رجال مبرومو الشوارب ، خضر الذقون ، وكان فى مدرسة محمد على فى ذلك الوقت — مثلا — تلميذ سمكرى ألحق بالمدرسة للعب الكرة ، وكان يجلس فى فصول السنة الرابعة ، وهو لايعرف فك الخط .

كان التلميذ إمام الفك . . « رجلا » ربعة ، وكان يبدو عليه الصمت والهدوء . . هدوء « الساهى اللى تحته دواهى » يسبل عينيه ويطرق برأسه ، بادى الحياء ظاهر الخجل . . . يجلس بجوار أبيه ساكناً منكمشاً ، تقطر منه الطيبة والبراءة وهو الذى لم يترك ماخورة فى طنطا إلا وطرقها ، ولم يدع غرزة إلا ودخلها .

هذا هو الابن النقى التقى ، الطاهر الذيل ، المغمض العينين الذى يخشى أبوه أن تتفتح عيناه على مفاسد القاهرة .

هذا هو الوديعة التى تسلمها العبقريان لتربيتها والسهر عليها . . .

وأنا أعرف أبى جيداً ، وأعرف أنه لم يكن لديه وقت لتربية أولاده ، فما بالكم بأولاد غيره ؟

أذكر مرة أنه نهرنى بشدة لا لأنى ألعب ، بل لأنى أذاكر دروسى ، وأذكر أنه أعطى أخى أحمد ريالا . . لا لأنه نجح ، بل لأنه ضرب أحد أبناء الجيران — وكان الولد أكبر منه — روسية فبطحه وأسال دمه . . وأذكر كذلك أن والدتى كانت تجمعنا أنا وأخوى فى حجرة صغيرة وتغلق علينا ونحن نستذكر دروسنا ، لا خوفاً علينا من الخروج ، بل خوفاً من دخول أبينا علينا وتعطيلنا ، ولم يكن يجدى معه الإغلاق ، فقد كان يصعد إلى أحد المقاعد ويشاغلنا من الشراعة الزجاجية .

تلك كانت طريقة أبى فى التربية ، ولو سألنا أحد أبناء الشيخ البرقوقى — ابنه عاطف مثلا — عن طريقة أبيه فى تربيتهم ، لما وجدناها خيراً من ذلك .

وهكذا ترك الشيخ الفلك وديعته البريئة الطاهرة

فى كنف المربيين الفاضلين ، وعاد إلى بلده هادئاً مطمئناً .

وكان أول مافعله هذا (الوديعة البريئة) أن ذهب إلى أحد نظار المدارس الأهلية وساومه على أن يأخذ منه ربع المصروفات ، نظير أن يقيده فى المدرسة ، مجرد قيد ، على أنه لن يضايقه لابحضور ولا بأخذ كتب ، ولا بأى شىء . . كل ماهو مطلوب من الناظر هو أن يثبته لديه كتلميذ . . نظير خمسة جنيهات .

وتم الاتفاق ، وأثبت « إمام » نفسه كتلميذ فى المدرسة . ثم انطلق على حل شعره . . يعيث — بقية المصروفات — فى القاهرة فساداً .

ومرّت الأيام والأسابيع والشهور . . وإمام — كما يقولون — متقطع السمكة وديلها . . حتى طبقت شهرته آفاق المواخير ، ولم يعد هناك بيت من البيوت (السر) . إلا ولإمام فيه مركز ممتاز .

وبدأت الأخبار تتواتر على أبيه — من أهل البلد الذين يزورون القاهرة — بما أضحى عليه حال ابنه ، ولم يصدق الشيخ فى بادىء الأمر ، وظن المسألة كلها من باب الكيد ، والحسد .

وأخيراً لعب الفار فى عبه ، وأصابه القلق ، ولم يرخيراً

من الذهاب بنفسه إلى القاهرة ليرى بنفسه جلية الأمر وليطمئن قلبه .

وطب على ولده ، وواجهه بالتهم والإشاعات ، وأسبل الابن عينيه ، وأخذ يبدى أسفه على سفالة أهل البلد وغرامهم بالأراجيف والأكاذيب والتشنيعات .

وهدأ الأب بعض الشيء ، وخفت وساوسه ، وأراد أن يقطع الشك باليقين . . فأخذ ولده وذهب إلى الشيخ البرقوقى والأستاذ السباعى ليتأكد من حسن سير ابنه وطيب سلوكه وليزيدهما توصية به ، ورعاية له .

ووصل الشيخ وابنه الهادى الوديع فى يده ، إلى المكتبة حيث وجد المربيين الفاضلين فى محلهما المختار .

وبعد التحيات ، بدأ الشيخ الفك الحديث :

— والله يا جماعه ماخبيش عليكم . . أنا بلغنى عن الواد إمام حاجات وحشه جوى .

— خير إن شا الله ؟

— بلغنى أن سيرته مهببه ، وأنه داير على حل شعره ينط هنا وهناك ، وأنه مش سائل لا فى دروس ولا فى مدرسه ، وأن حالته زفت وقطران .

وتعالت الدهشة من الطرف الآخر :

— إمام ! مين قال كده ياسى الشيخ ؟ حد يقول الكلام ده ؟ استغفر الله العظيم . . ده إمام زى القطه المغمضه .

وزادت القطة المغمضة تغميضاً وانكماشاً ، وقال أبى فى سره :

— والله مسيرك تروح فى شر أعمالك يإمام الكلب ، وتفضحنا معاك .

وعاد يقول للشيخ :

— إمام ؟ إمام سيرته مهببه ؟ ده من المدرسه للبيت ومن البيت للمدرسه . . ده حايموت نفسه من المذاكره ، وإحنا حتى قلنا له ياإمام حقك ترحم نفسك شويه . . مش كده يا إمام ؟

وأطرق إمام برأسه موافقاً . . لقد قالوا له هذا حقاً ، وسألوه أن يرحم نفسه ، ولكن مم ؟ ؟

وهكذا أخذ صاحبانا يطمئنان الأب ، وانطلقا يعددان محاسن إمام ويضربان المثل على طيبته وصلاحه . . . حتى اقتنع الشيخ وأطرق برأسه خجلا من نفسه :

— والله أنا برضه جات كده . . بس كلام الناس وسوسنى . . الله يلعن أبوهم .

— غايرين منك ياعم الشيخ ، حاسدينك على ابنك الفالح .

— معلهش . . الله يسامحهم . . أهو برضه جينا شفنا كم واطمأنينا عليكم . .

وهم الشيخ بالنهوض وقد هدأ قلبه تماماً ، ومد يده للسلام . .

وفى نفس اللحظة بدت عربة كارو . . قد اعتلتها حفنة من نساء (وجه البركة) وقد علا ضجيجهن وارتفعت أصواتهن بالغناء « الفاتحة للعسكرى » . . وارتدت إحداهن طربوشاً وأمسكت بيدها عصا ووقفت على العربة تهز بطنها وردفيها وجلست (البدرونة) بجسدها السمين المترهل والمنديل الأحمر أبو أويه وقد تهدلت ملاءتها من حافة العربة وأخذت تدق على طبلة بيدها وانهمكت بقية النساء فى التصفيق .

وكان من المحتمل أن يمر المنظر بسلام . إذ لم يكن فيه مايثير العجب ، فطالما مرّت أمام المكتبة أمثال تلك العربات ، ولكن المصاب وقع عندما لمحت إحدى النسوة صاحبنا إمام وقد وقف وراء والده وهو يمد يده للسلام على الشيخ البرقوقى .

وضربت المرأة بيدها على صدرها وصاحت متسائلة :

— بت ياتفيده . . مش هو ه دا إمام ؟

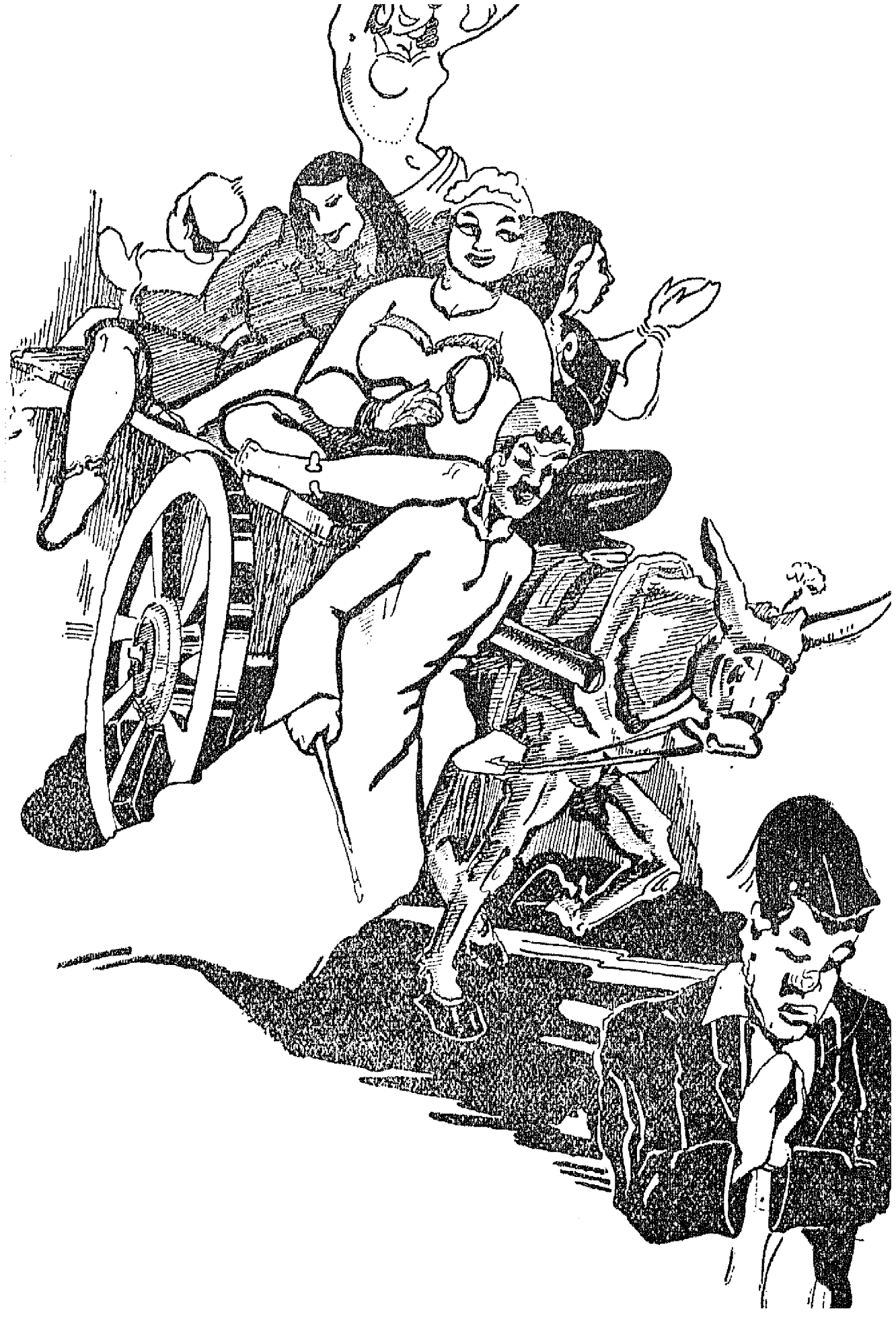

ـ آه والنبي ياختي . . باينه هوا .

وتعالت أصوات النسوة :

ـ يوه . . دا إمام .

ـ ينيلك يا إمام .

وصاحت البدرونه :

ـ ودا إيه اللي جابه يا اختي في وسط المشايخ . . ؟ يوه جاتك نيله .

وطلبت النسوة من العربجي أن يوقف العربة ، ونزلت إحداهن إلى الأرض صائحة :

ـ المنيل على عينه عليه لي ريال . . بقاله شهر . . فين يا واد الريال ؟

* * *

ويهز أبي رأسه وتنطلق منه قهقهة وهو يقول لي :

ـ لم أشعر في حياتي بخجل أشد مما شعرت به في ذلك الوقت . . لقد أحسست أنا والشيخ البرقوقي أن دشاً بارداً قد صب علينا ، ولم ندر ماذا نقول ولا ماذا نفعل ، ووقفنا أمام الشيخ الفك ونحن مشدوهين مبهوتين .

وانصرف الشيخ بولده فلم نبصر لهما بعد ذلك وجهاً .